

قصيدة أبو إسحاق الألبيري في وصية ابنه

تفت فؤادك الأيام فتا ... وتنحت جسمك الساعات نحنا
وتدعوك المنون دعاء صدق ... ألا يا صاح أنت أريد أنتا
أراك تحب عرسا ذات خدر ... أبت طلاقها الأكياس بتا
تمام الدهر ويحك في غطيظ ... بها حتى إذا مت انتبهتا

فكم ذا أنت مخدوع وحتى ... متى لا ترعوي عنها وحتى
أبا بكر دعوتك لو أجبتا ... إلى ما فيه حظك لو عقلتا
إلى علم تكون به إماما ... مطاعا إن نهيت وإن أمرتا
ويجلو ما بعينك من عشاها ... ويهديك الطريق إذا ضللتا
وتحمل منه في ناديك تاجا ... ويكسوك الجمال إذا عريتا
ينالك نفعه ما دمت حيا ... ويبقى ذخره لك إن ذهبتا
هو العضب المهند(1) ليس ينبو(2) ... تصيب به مقاتل من أردتا
وكنز لا تخاف عليه لصا ... خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص أن به كفا شددتا

فلو قد ذقت من حلواه طعما ... لآثرتالعلم واجتهدتا
ولم يشغلك عنه هوى مطاع ... ولا دنيا بزخرفها ففتنتا
ولا ألهاك عنه أنيق روض ... ولا خدر بزينتهاكلفتا
فقوت الروح أرواح المعاني ... وليس بأن طعمت ولا شربتا
فواظبه وخذ بالجد فيه ... فإن أعطاكه الله انتفعتا
وإن أوتيت فيه طويل باع ... وقال الناس إنك قد علمتا
فلا تأمن سؤال الله عنه ... بتوبيخ علمت فهل عملتا ؟
فأرأس العلم تقوى الله حقا ... وليس بأن يقال لقد رأستنا
وأفضل ثوبك الإحسان لكن ... نرى ثوب الإسادة قد لبستنا
إذا ما لم يفدك العلم خيرا ... فخير منه أن لو قد جهلتنا
وإن ألقاك فهمك في مهاو ... فليتك ثم ليتك ما فهمتا
ستجنى من ثمار العجز جهلا ... وتصغر في العيون إذا كبرتنا
وتفقد إن جهلت وأنت باق ... وتواجد إن علمت وقد فقدتا
وتذكر قولتي لك بعد حين ... إذا حقا بها يوما عملتا
وإن أهملتها ونبذت نصحا ... وملت إلى حطام قد جمعتنا
لسوف تعض من ندم عليها ... وما تغني الندامة إن ندمتا

إذا أبصرت صحبك في سماء ... قد ارتفعوا عليك وقد سفلتا

فراجعها ودع عنك الهوينا ... فما بالبطء تدرك ما طلبنا
ولا تختل بمالك واله عنه ... فليس المال إلا ما علمتا
وليس لجاهل في الناس مغن ... ولو مُلك العراق له تأتي
سينطق عنك علمك في ملاء ... ويكتب عنك يوما إن كتمتا
وما يغنيك تشييد المباني ... إذا بالجهل نفسك قد هدمتا
جعلتا المال فوق العلم جهلا ... لعمرك في القضية ما عدلتا
وبينهما بنص الوحي بون ... ستعلمه إذا طه قرأتا
لئن رفع الغنى لواء مال ... لأنت لواء علمك قد رفعتا
وإن جلس الغنى على الحشايا ... لأنت على الكواكب قد جلستا
وإن ركب الجياد مسومات ... لأنت على الكواكب قد جلستا
وإن ركب الجياد مسومات ... لأنت مناهج التقوى ركبتا
ومهما افتض أبقار الغواني ... فكم بكر من الحكم افتضتتا

وليس يضرّك الإقتار شيئاً ... إذا ما أنت ربك قد عرفنا
فماذا عنده لك من جميل ... إذا بفناء طاعته أنختنا
فقابل بالقبول لنصح قولي ... فإن أعرضت عنه فقد خسرتنا
وإن راعيته قولاً وفعلاً ... وتاجرت الإله به ربحتنا
فليست هذه الدنيا بشيء ... تسوؤك حقبة وتسروقتنا
وغايتها إذا فكرت فيها ... كفيئك أو كحلمك إن حلمنا
سجنت بها وأنت لها محب ... فكيف تحب ما فيه سجنتنا
وتطعمك الطعام وعن قريب ... ستطعم منك ما منها طعمنا
وتعري إن لبست بها ثياباً ... وتكسى إن ملابستها خلعتنا
وتشهد كل يوم دفن خل ... كأنك لا تراد لما شهدنا
ولم تخلق لتعمرها ولكن ... لتعبرها فجد لما خلقتنا
وإن هدمت فزدها أنت هدماً ... وحصن أمر دينك ما استطعتنا
ولا تحزن على ما فات منها ... إذا ما أنت في أخراك فزرتنا
فليس بنافع ما نلت منها ... من الفاني إذا الباقي حرمتنا
ولا تضحك مع السفهاء لهوا ... فإنك سوف تبكي إن ضحكتنا
وكيف لك السرور وأنت رهن ... ولا تدري أتفدى أم غللتنا

وسل من ربك التوفيق فيها ... وأخلص في السؤال إذا سألتا
وناد إذا سجدت له اعترافا ... بما ناداه ذو النون بن متى
ولازم بابيه قرعا عساه ... سيفتح بابيه لك إن قرعتا
وأكثر ذكره في الأرض دأبا ... لتذكر في السماء إذا دكرتا
ولا تقل الصبا فيه مجال ... وفكر كم صغير قد دفنتا

وقل : يا نصيحي بل أنت أولى ... بنصحك لو لفعلك قد نظرتا
تقطعني على التفريط لوما ... وبالتفريط دهرك قد قطعتا
وفي صغري تخوفني المنايا ... وماتدري بحالك حيث شختا
وكنت مع الصبا أهدى سبيلا ... فما لك بعد شيبك قد نكستا

وها أنا لم أخض بحر الخطايا ... كما قد خُضته حتى غرقنا
ولم أشرب حميا(3) أم دفر ... وأنت شربتها حتى سكرتا
ولم أحل بواد فيه ظلم ... وأنت حللت فيه وانتهكتا
ولم أنشأبصر فيه نفع ... وأنت نشأت فيه وما انتفعتا
لقد صاحبت أعلاما كبارا ... ولم أرك اقتديت بمن صحبتا
وناداك الكتاب فلم تجبه ... ونبهك المشيب فما انتبهتا
ويقبح بالفتى فعل التصابي ... وأقبح منه شيخ قد تفتى
ونفسك ذم لا تذمم سواها ... لعيب فهي أجدر من ذممتا
فأنت أحق بالتفنيد مني ... ولو كنت اللبيب لما نطقتا
فلو بكت الدما عيناك خوفا ... لذنبك لم أقل لك: قد أمنتا
ومن لك بالأمان وأنت عبد ... أمرت فما ائتمرت ولا أطعنا
ثقلت من الذنوب ولست تخشى ... لجهك أن تخف إذا وزنتا
وتشفق للمصر على المعاصي ... وترحمه ونفسك ما رحمتا
رجعت القهقري وخطبت عشوا(4) ... لعمرك لو وصلت لما رجعتا
ولو وافيت ربك دون ذنب ... وناقشك الحساب إذن هلكتا
ولم يظلمك في عمل ولكن ... عسير أن تقوم بما حملتا

ولو قد جئت يوم الحشر فردا... وأبصرت المنازل فيه شتى
لأعظمت الندامة فيه لهفا ... على ما في حياتك قد اضعنا
تفر من الهجير وتتقيه ... فهلا عن جهنم قد فررتا
ولست تطيق أهونها عذابا ... ولو كنت الحديد بها لذبتا
ولا تنكر فإن الأمر جد ... وليس كما حسبت ولا ظننتا
أبا بكر كشف أقل عيبي ... وأكثره ومعظمه سترتا
فقل ما شئت في من المخازي ... وضاعفها فأنت قد صدقتا
ومهما عبتني فلفرط علمي ... بباطنتي كأنك قد مدحتا
فلا ترض المعاييب فهو عار ... عظيم يورث المحبوب مقتا
ويهوي بالوجيه من الثريا ... ويبدله مكان الفوق تحتا
كما الطاعاتتبدلك الدراري ... وتجعلك القريب وإن بعدتا
وتنشر عنك في الدنيا جميلا ... فتلقى البر فيها حيث كنتا
وتمشي في مناكبها عزيزا ... وتجني الحمد مما قد غرستا
وأنت الآن لم تعرف بعيب ... ولا دنست ثوبك مذ نشأتا
(ولا سابقت في ميدان زور ... ولا أوضعت فيه ولا خببتا 5)
فإن لم تنأ عنه نشبت فيه ... ومن لك بالخلاص إذا نشبتا

تدنس ما تطهر منك حتى ... كأنك قبل ذلك ما طهرتا
وصرت أسير ذنبك في وثاق ... وكيف لك الفكاك وقد أسرتا

فخف أبناء جنسك واخش منهم ... كما تخشى الضراغم والسبنتى
6))

وخالطهم وزائلهم حذارا ... وكن كالسامري إذا لمستا
وإن جهلوا فقل سلامٌ ... لعلك سوف تسلم إن فعلتا
ومن لك بالسلامة في زمان ... تنال العِصمَ إلا إن عُصمتا
ولا تلبث بحي فيه ضيم ... يميت القلب إلا إن كُبلتا
وغرب فالتغرب فيه خير ... وشرق إن بريقك قد شرقتا
فليس الزهد في الدنيا خمولا ... لأنت بها الأمير إذا زهدتا

ولو فوق الأمير تكون فيها ... سموا وأفتخارا كنت أنتا
فإن فارقتها وخرجت منها ... إلى دار السلام فقد سلمتا
وإن أكرمتها ونظرت فيها ... بإجلال فنفسك قد أهنتا
جمعت لك النصائح فامتثلها ... حياتك فهي أفضل ما امتثلتا
وطولت العتاب وزدت فيه ... لأنك في البطالة قد أطلتا
ولا يغرك تقصيري وسهوي ... وخذ بوصيتي لك إن رشدتا
وقد اردفتها ستا حسانا ... وكانت قبل ذا مائة وستا
وصل على تمام الرسل ربي... وعترته الكريمة ما ذكرتا